# الإمام الغزالى

## كان اللجوء إلى الله

## خلاصاً لروحه ولنفسه

# الإمام الغزالى

لا شك أن الإمام أبو حامد الغزالى شخصية من أبرز الشخصيات فى الفكر الإسلامى. ألمَّ بعلوم الشرع والمنطق والفلسفة، كما ألم بكل علوم عصره، حتى أعده البعض من الفلاسفة لدراسته كل المذاهب الفلسفية فى عصره.. وكتب عنها وهاجمها هجوم العارف بخبايا دقائقها كما فعل فى كتابه «تهافت الفلاسفة» ، أو عرضه لهذه المذاهب فى كتابه «المقاصد»، واعتبره البعض الآخر أنه ليس فيلسوفاً رغم تعمقه فى دراسة الفلسفة اليونانية، ولكنه مفكر كبير، آثر أن يتجه نحو التصوف الإسلامى.. فدرسه من جميع جوانبه، ثم مارسه ممارسة عملية وكان تصوفه يعتمد على الكتاب والسنة، أى أنه كان تصوفاً سنياً بعيداً عن شطحات التصوف الفلسفى من أعظم مفكرى ومتصوفة الإسلام بشهادة كل من درس حياته وثقافته من مفكرى الإسلام والغرب على السواء، وسواء أيدوا أفكاره أو عارضوها.

ولد الغزالى بطوس عام ٤٠٥هـ ، وقد عهده أحد الصوفية من أصدقاء أبيه، فقد أوصى والده هذا الصوفى على رعاية ولديه أحمد ومحمد.. وقام الرجل بما يجب أن يقوم به الرجل الصالح، فرعى ولدى صديقه، وقد تتلمذ الغزالى فى صباه على أحمد الراذكانى، وأبى منصور الإسماعيلى فى طوس، وبعدها توجه إلى نيسابور حيث تتلمذ على أبو المعالى الجوينى الملقب بإمام الحرمين، وعندما توفى الإمام الجوينى عام ٤٧٨هـ، خرج الإمام الغزالى وكان قد درس كل ما يجرى فى عصره من معارف، خرج واتجه إلى العسكر، حيث أكرمه الوزير نظام الملك، وقد أعجب به نظام الملك عندما شهد مناظرة بين الغزالى وبعض العلماء، وهنا وجد أن الإمام الغزالى قد تفوق عليهم بالحجة والبرهان، وأيقن أنه عالم كبير، ومفكر كبير أيضاً، فعهد إليه بالتدريس بالمدرسة النظامية فى بغداد. وعندما قدم بغداد أعجب الناس بعلمه وبلاغته وفصاحته، وقدرته الفائقة عن الحديث فى مختلف قضايا

الشرع والفلسفة والكلام، قدرة فائقة ، تبدت فى نقده للفلسفة وما فيها من تهافت ولكن الإمام الغزالى رغم علمه وفقهه وتعمقه فى علوم عصره ألمت به محنة قاسية، محنة أحسها فى أعماقه، واستبدت به، وأصيب بأزمة نفسية شديدة القسوة.

انتابته حالة من الشك، طلب من الله العلى العزيز أن ينقذه منها . . فاعتزل الناس، وتفرغ للتعبد والتأمل. . وهو يصور هذه الأزمة بقوله:

- ثم لاحظت أحوالى فإذا أنا منغمس فى العلائق (التعلق بالدنيا) وقد أحدقت بى من الجوانب، ولاحظت أعمالى وأحسنها التدريس، فإذا أنا مقبل على علوم غير مهمة ولا نافعة. . ثم تفكرت فى نيتى فى التدريس، فإذا هى غير خالصة لوجه الله تعالى، بل باعثها ومحركها طلب الجاه وانتشار الصيت، فتيقنت أننى على شفا جرف هار، وأننى قد أشفيت على النار إن لم اشتغل بتلافى الأحوال.

فلم أزل أتفكر فيه مدة، وأنا بعد على مقام الاختيار، أصمم العزم على الخروج من بغداد ، ومفارقة تلك الأحوال يوما، وأحل العزم يوماً، وأقدم فيه رجلاً، وأؤخر عنه أخرى، لا تصفو لى رغبة فى طلب الآخرة بكره إلا ويحمل جند الشهوة حملة فيفترها عشية ، فصارت شهوات الدنيا تجاذبنى بسلامها إلى المقام، ومنادى الإيمان ينادى الرحيل، الرحيل، فلم يبق من العمر إلا القليل، وبين يديك السفر الطويل، وجميع ما أنت فيه من العلم والعمل رياء وتخيل، ثم يعود الشيطان فيقول: هذه حالة عارضة وإياك أن تطاوعها فإنها سريعة الزوال.

فلم أزل أتردد بين تجاذب شهوات الدنيا، ودواعى الآخرة قريباً من ستة أشهر. . وفى هذا الشهر جاوز الأمر حد الاختيار إلى الاضطرار، إذ أقفل الله على لسانى حتى اعتقل عن التدريس ، فكنت أجاهد نفسى أن أدرس يوماً واحداً تطبيباً لقلوب المختلفين إلى، فكان لا ينطق لسانى بكلمة، ولا استطيعها البتة، وورثت هذه الفعلة فى اللسان حزناً فى القلب، بطل معه قوة الهضم وذم الطعام والشراب، فكان لايستساغ لى شربة، ولا ينهضم لى لقمة، وتعدى الأمر إلى ضعف القوى حتى

قطع الأطباء طمعهم من العلاج وقالوا: هذا أمر نزل بالقلب ومنه سرى إلى المزاج، فلا سبيل إليه بالعلاج، إلا بأن يتروح السر عن الهم الملم.

ثم لما أحست بعجزى . . وسقط بالكلية اختيارى، التجأت إلى الله تعالى التجاء المضطر الذى لا حيلة له».

ومن هنا نرى أن الغزالى فى محنته تلك اتجه إلى الله تعالى لينقذه من هوه الشك، وقد شفى من ذلك عندما استجاب الله له، وتم له الشفاء.

وهو يصور ذلك بقوله:

- فأعضل هذا الداء ودام قريباً من شهرين أنا فيهما على مذهب السفسطة - بحكم الحال، لا يحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضرورات العقلية مقبولة موثوقا بها على أمن ويقين، ولم يكن كل ذلك بتنظيم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى فى الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المجردة فقد ضيق رحمة الله الواسعة.

وهكذا أصبح الإمام الغزالى يستضئ فكره بنور الإيمان. ويرى أن الصوفية هم السالكون حقاً لطريق الله، فطريقهم هو خير الطرق.

يقول الإمام الغزالى:

« الصوفية هم السالكون لطريق الله تعالى خاصة، وأن سيرتهم أحسن السير، وطريقتهم أصوب الطرق، وأخلاقهم أزكى الأخلاق، وذلك لأن حركاتهم وسكناتهم فى ظاهرهم وباطنهم مقتبسة من نور مشكاة النبوة، وليس وراء نور النبوة على وجه الأرض نور يستضاء به ».

وقد أقبل الغزالى بعد ذلك كما يقول الدكتور أبو الوفا التفتازانى على حياة من نوع جديد، وهى حياة الزهد والعبادة والتكمل الروحى والأخلاقى والتقرب إلى الله.

وفى سنة ٤٨٨ هـ خرج من بغداد وقصد إلى الحج، ولما انتهى من الحج ذهب إلى الشام سنة ٤٨٩هـ ، وقام بدمشق يدرس بزاوية الجامع فى الجانب الغربى منه، وانتقل إلى بيت المقدس، واجتهد فى العبادة، وقيل أنه قدم مصر وأقام بالاسكندرية مدة ثم عاد إلى طوس واشتغل بالتأليف ويقول ابن خلكان أنه :

- ألتزم بالعود إلى نيسابور والتدريس بها بالمدرسة النظامية فأجاب إلى ذلك بعد تكرار المعاودات، ثم ترك ذلك وعاد إلى بيته فى وطنه، واتخذ خانقاه (بيتا) للصوفية ومدرسة للمشتغلين بالعلم فى جواره، ووزع أوقاته على وظائف الخير من ختم القرآن ومجالسة أهل القلوب، والعقود للتدريس إلى أن انتقل إلى ربه، وكان ذلك فى يوم الاثنين رابع عشر من جمادى الآخرة سنة ٥٠٥ هـ.

ومعروف أن الغزالى ألف الكثير من الكتب ومن أشهرها (إحياء علوم الدين) (والمنقذ من الضلال)، و(تهافت الفلاسفة)، و(منهاج العابدين)، و(كيمياء السعادة)، و(المقصد الأسنى فى شرح أسماء الله الحسنى)، و(الرسالة اللدنية)، وغير ذلك من المؤلفات التى ترجم الكثير منها إلى مختلف لغات العالم.

لقد كان الإمام الغزالى قامة عالية فى الفكر الإسلامى، بكتبه التى أنارت الطريق لفهم الإسلام فهما صحيحاً . .

وبتصوفه المبنى على الكتاب والسنة، وبمهاجمته للفلاسفة الذين يتصورون أن العقل وحده هو وسيلة المعرفة، بينما العقل له حدود يقف عندها .

أو على حد قول الإمام الراحل الدكتور عبدالحليم محمود وهو يتحدث عن الإمام الغزالى والفلسفة فى كتابه (الفلسفة والحقيقة). . نراه بعد أن يتحدث عن الفلسفة وموقف الإمام الغزالى منها يقول:

« . . على أنه إذا كان يلتمس لليونان العذر فى معالجة هذا الموضوع لعدم وجود الوحى المعصوم الذى يهديهم الطريق، وينير لهم الجادة، فليس هناك من عذر للمسلمين وبين أيديهم رسالة السماء ممثلة (فى القرآن) وهو ﴿ كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴿١﴾ ﴾[هود]، ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ

تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ [فصلت] وقد تكفل الله بحفظه: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴿٩﴾ [الحجر].

ليس للمسلم إذن - فيما يرى الإمام الغزالى - أن يحاول ابتداع عالم ما وراء الطبيعة ، أو اختراعه عقلياً، ولكن المسلمين أخذوا فيما أخذ فيه اليونان، واعتمدوا على العقل، وألقوا قيادهم إليه، فتفرقوا مذاهب شتى، وطرائق قددا، وأصبح للفلسفة برغم هذا بريق يخطف الأبصار، ولمعان كالسراب يجذب الكثيرين!

ويقول:

لابد إذن من التشمير عن ساعد الجد، وهدم هذا الزيف، وإبطال هذا السحر، حتى يعود الناس إلى الاعتصام بحبل الله وعدم التفرق..

وحمل الإمام الغزالى على الأساس التى تقوم عليه الفلسفة وهو (العقل) حملة عنيفة، وهجم عليه هجوماً قوياً، ولم يفتر قط عن مهاجمته منذ ألف كتابه القيم (تهافت الفلاسفة) محاولة موفقة كل التوفيق، جريئة كل الجرأة، طريفة كل الطرافة، وما كان المقصد الأول والهدف الأساسى لهجومه هدم الآراء فى نفسها، فبعضها صحيح، موافق للدين، ومع ذلك فقد هدم الإمام الغزالى، المنهج العقلى الذى استندت إليه هدم الآراء: فخلود النفس مثلاً رأى يقول به الغزالى، ويقول به الفلاسفة، ولكن الإمام الغزالى حمل معوله على طريقة الفلاسفة فى إثبات خلود النفس وهدم أدلتهم ، وضرب بمعولة فيها فانهارت وتهافتت، ومع ذلك فقد كان هو مؤمناً بهذا الخلود، إنه لم يلتزم فى هذا الكتاب إلا تكدير مذهبهم، والتعبير فى وجه أدلتهم بما يبين تهافتهم!

ومقصوده : تنبيه من حسن اعتقاده من الفلاسفة، وظن أن مسالكهم نقية عن التناقض ببيان وجوه تهافتهم.

ويقول : أنا لا أدخل فى الاعتراض عليهم إلا دخول مطالب منكر، لا دخول مدع، مثبت، فأبطل عليهم ما اعتقدوه بإلزامات مختلفة.

فالزمهم : تارة مذهب المعتزلة.

وثانية : مذاهب الكرامية.

وطورا : مذهب الوقفية.

ولا أنهض ذابا عن مذهب مخصوص.

ويقول الأستاذ بلاسيوس:

بحق : إن الغزالى حين سمى كتابه (تهافت الفلاسفة) كان يريد أن يمثل لنا أن العقل الإنسانى يبحث عن الحقيقة، ويريد الوصول إليها، كما يبحث البعوض عن ضوء النهار؛ فإذا أبصر شعاعاً يشبه نور الحقيقة انخدع به، فرمى بنفسه عليه وتهافت فيه!

ولكنه يخطئ مخدوعاً بأقيسة منطقية خاطئة، فيهلك كما يهلك البعوض.

فكأن الغزالى يريد أن يقول:

أن الفلاسفة خدعوا بأشياء أسرعوا إليها بلا إعمال روية، فتهافتوا ، وهلكوا الهلاك الأبدى.

ويقول الدكتور عبدالحليم محمود أيضاً:

وفى كتاب التهافت هدم الإمام الغزالى عقلياً ما بناه الفلاسفة معتمدين على عقولهم ، وتهافتت الآراء تحت قلمه، ومن الحق أن تقول : إن أدلة الإمام الغزالى فيها من القوة ومن الرسوخ بحيث لا تقل من وجهة النظر العقلية - عن أدلة الفلاسفة العقليين وما من شك أن حملة الإمام الغزالى إنما كانت موجهة أولاً وبالذات إلى العقل.

والقضية المتنازع عليها هى قضية استطاعة العقل الوصول إلى المعرفة اليقينية فى عالم (ما وراء الطبيعة).

الإمام الغزالى ينكر، ويثبت إنكاره بالإخفاق المتتابع للفلاسفة، ويثبته أيضاً بهدم العقل لكل ما بناه العقل نفسه فى هذا الميدان.

والتعارض إذن - والكلام مازال للدكتور عبدالحليم محمود بين الإمام الغزالى والفلاسفة إنما هو تعارض كلى ، ولذلك فإن المحاولات الكثيرة المتعددة لتصحيح آراء الفلاسفة أو لتصحيح بعضها، ونقد الإمام الغزالى فى حملته على هذا الرأى أو ذاك، والانتصار لوجهة النظر الفلسفية فى هذه أو تلك - إن ذلك كله غير مجد فى القضية التى أثارها الإمام الغزالى، وهى محاولات جَهِلَ القائلون بها موضوع النزاع على حقيقته أو تجاهلوه!

ومن هنا كانت محاولة - ابن رشد - وهو أكبر المدافعين عن الفلاسفة تصويب آراء الفلاسفة فى كتابه - تهافت التهافت- عملاً غير مفيد فى حسم النزاع، إذ أن دائرة النزاع الحقيقية إنما هى الأساس الذى بنيت عليه الآراء وليست الآراء نفسها!

والواقع أن فكرة الإمام الغزالى لا تزال للآن تتسم بالسهولة والوضوح والقوة: لقد أخفقتم أيها العقليون، والدليل على إخفاقكم اختلافكم المستمر، هذا الاختلاف الذى أصبح وكأنه القاعدة والمبدأ العام.

ولعل من الجوانب الهامة فى حياة الإمام الغزالى دعوته إلى الأخلاق، والأخلاق عنده هى تلك التى أمر بها الإسلام . . وأن على المسلم أن يراعى جانب الاعتدال ويبتعد عن الغلو والتطرف.

فالخير خير لأن الله أمرنا به.

والشر شر لأن الله نهانا عنه.

وهو يرى أن الإنسان لديه القدرة على تغيير أخلاقه ، وإلا لما أمرنا الشرع بأن نغير أخلاقنا لتتلائم مع ما جاء فى الشريعة الإسلامية، ولأن الرسول عليه الصلاة والسلام هو القائل:

- بعثت لأتمم مكارم الأخلاق.

ولكى تتمم مكارم الأخلاق لابد من تعديلها وفقاً لتعاليم الدين الحنيف.

ولو كان من الصعوبة تغيير الأخلاق، وأن الإنسان مفطور على ما خلق عليه ما دعا الإسلام للتحلى بالأخلاق الفاضلة.

وكان يرى أن الحيوانات يمكن بالتدريب أن تغير من سلوكها حسب البيئة التى تعيش فيها، وما يعودها عليه الناس رغم أنها لا تمتلك العقل الذى يمتلكه البشر، وبالتالى فمن باب أولى أن الإنسان يمكنه أن يغير من سلوكياته حتى تتفق مع ما جاء به الشرع.

وعن طريق الرياضة والمجاهدة من الممكن أن نكبح جماح الغضب والشهوة، وأن نسلك طريقاً وسطاً، فالإنسان لا يمكن أن يقضى على غرائزه ولكن يمكن أن يهذبها حتى لا يصير عبدا لها.

والمطلوب أن يكون الإنسان معتدلاً فى سلوكياته، أو على حد تعبير الدكتور عاطف العراقى وهو يستعرض فلسفة الغزالى الأخلاقية : أن المطلوب فيما يرى الغزالى هو أن نرد الغضب والشهوة إلى حد الاعتدال ، بحيث لا يتغلب الغضب أو تتغلب الشهوة على العقل ، بل يكون العقل هو الضابط لهما والغالب عليهما.

هذا يراه الغزالى ممكنا، بل إن هذا هو المراد بتغيير الخلق. صحيح أن الشهوة ربما تستولى على الإنسان بحيث لا يقوى عقله على إيقافها عند حد معين، ولكن بالرياضة تعود إلى حد الاعتدال، والمشاهدات والتجارب واستقراء أحوال الناس تدلنا على أننا قد ننساق مع الشهوات أحياناً، ولكننا بعد فترة وبعد نوع من المجاهدة والرياضة نتمكن من وضع حدود وضوابط لشهواتنا ويقول أيضاً:

وإذا كان الغزالى قد تأثر بأرسطو فى دعوته إلى الموقف الوسط، وقوله أن الفضيلة وسط بين إفراط وتفريط ، فإنه قد تأثر بالمصدر الإسلامى الذى يتمثل فى الآيات القرآنية والأحاديث النبوية أكثر من تأثره بأرسطو.

فهو مثلا حين يبين لنا أن المطلوب هو الوسط فى الأخلاق دون الطرفين، يدلل على ذلك بأن السخاء خلق محمود شرعا، وهو وسط بين طرفى التبذير والتقتير.

وقد أثنى الله تعالى على السخاء فقال:

﴿ وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ﴾[الفرقان: ٦٧].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ ﴾[الإسراء: ٢٩].

ويقول الرسول ﷺ: «خير الأمور أوسطها».

وإذا كان السخاء هو المطلوب لأنه يعد وسطا بين طرفين غير مرغوب فيهما، وهما التبذير والتقتير، فإن الشجاعة أيضاً مطلوبة، إذ أنها وسط بين الجبن والتهور، والعفة مطلوبة، إذ أنها وسط بين الشره والجمود.

والاعتدال فى الطعام أيضاً مطلوب، وليس المطلوب هو الشره أو الجوع.. يقول الله تعالى:

﴿ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴾[الأعراف: ٣١].

وهكذا فى سائر الأخلاق، نجد أن المطلوب هو الوسط باستمرار، وهو الذى يمثل موقف الاعتدال لاموقف الإفراط أو التفريط تماماً كما تقول أن الماء الفاتر لا حار ولا بارد، بل هو وسط بين الحار والبارد.

الغزالى إذن كان بمنهجه ورؤيته فيلسوفاً ومصلحاً ومفكراً كبيراً، وقد انتشرت كتبه فى مختلف أنحاء العالم الإسلامى وترجمت إلى أكثر من لغة، وكان علما بارزاً من أعلام التجديد، والرؤية الإصلاحية.

ولقد عبر الإمام المراغى عن عبقرية الإمام الغزالى بقوله:

- إذا ذكر ابن سينا أو الفرابى خطر بالبال فيلسوفان عظيمان وإذا ذكر ابن عربى خطر رجل صوفى له فى التصوف آراء لها خطورتها.

وإذا ذكر البخارى ومسلم وأحمد خطر بالبال رجال لهم أقدارهم فى الحفظ والصدق والأمانة والدقة ومعرفة الرجال.

أما إذا ذكر الغزالى فقد تشعبت النواحى، ولم يخطر بالبال رجل واحد. بل خطر بالبال رجال معدودون لكل واحد قيمته وقدرته.

يخطر بالبال الغزالى الأصولى الماهر.

والغزالى الفقيه الحر.

والغزالى إمام أهل السنة وحامى حماها.

والغزالى الاجتماعى الخبير بأحوال العالم، وخفيات الضمائر ومكنونات القلوب.

والغزالى الفيلسوف . . أو الذى ناهض الفلسفة وكشف عما فيها من زخرف وزيف.

والغزالى المربى.

والغزالى الصوفى الزاهد.

وإن شئت فقل يخطر بالبال رجل هو دائرة معارف عصره.

و . . ما أكثر ما يمكن أن يكتب ويقال عن الإمام الغزالى الذى كان فكره علامة مضيئة لعصره، وما بعد عصره من عصور.